

مطالعات اسلامي: علوم قرآن و حديث، سال چهل و هفتم، شماره پيايى ٩٤
بهار و تابستان ١٣٩٤، ص ٧٨-٥٧

نظرة جديدة لوصف النساء بنواقص العقول*

حيدر مسجدي

عضو هيئت علمي دانشگاه قرآن و حديث قم

Email: masjedi.1967@gmail.com

الخلاصة

وصفت بعض الأحاديث النساء بكونهن «نواقص العقول»، وقد أثارت هذه الأحاديث جدلاً محتدماً في الأوساط العلمية، حتى إنه كتبت حولها رسائل ماجستير. واختلف الباحثون في التعاطي معها؛ بين رادّ لها ومنكر لصدورها، وبين موافق لها ومدعن لتقص عقول النساء، وبين موافق لها مؤوّل لمعناها. علماً أن هذه النصوص قد وردت في أهم المصادر الحديثية للفريقين، فاستقصيناها أولاً، ودرسناها من جوانب عديدة ثانياً، وانتهينا إلى أنه لا يمكن الطعن في صدورها، كما لا يمكن الطعن في المقطع المشار إليه منها؛ لاستخدامه فيها بوفرة وكثرة، فلا يبقى مجال إلا البحث في دلالتها.

وبعد دراسة معاني «العقل» في اللغة والحديث، وتسليط الأضواء على بعض جوانب الروايات المذكورة، مضافاً لملاحظة القرائن المتوفرة، انتهينا إلى أن المراد بالعقل ليس هو القوة الإدراكية، وأن المراد الجدي من هذه الروايات هو ذم غلبة النساء للرجال لا الطعن في قواهن الإدراكية كما هو المفهوم منها في الغالب. واعتمدنا في بحثنا أسلوب التتبع في الكتب والتحليل.

الألفاظ المحورية: العقل، الإيمان، النساء، نواقص العقول.

*. تاريخ وصول ١٣٩٣/٠٣/٢١؛ تاريخ تصويب نهائى: ١٣٩٣/٠٩/٠٩.

المدخل

لا ريب أن المؤمن الحقيقي هو من كان تابعاً للنبي وأهل بيته في جميع أموره؛ من عقائده وأقواله وأفعاله، ومسلماً لهم في كل شيء، قال تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (النساء: ٦٥).

وفي هذا المجال نواجه جملة من الأحاديث تصف النساء بنواقص العقول، والتسليم لما ورد فيها فرع صدورها عن أهل بيت الرسالة أولاً، وفهم المراد منها ثانياً. ونظراً لكون المنسب منها في العصر الحاضر هو نقص قواهن الإدراكية، اختلف الباحثون في التعاطي معها بين راد لها - إما لمخالفتها للقرآن أو لضعف أسانيدها - وبين مسلم لصدورها ومؤول لها، أو مسلم لها مع التسليم لظاهر معناها. المقال الحضري يسلط الأضواء على هذه الروايات من جوانب عديدة؛ ليكشف عن حالها.

تاريخ المسألة

وقع الكلام في المراد من نقص عقل المرأة منذ قرون مديدة، فتعرض له السيد المرتضى (المتوفى ٤٣٦ق) قائلاً: «... وأما نقصان العقل، فمعلوم أن النساء أندر عقولاً من الرجال، وأن النجاة والليانة إنما يوجدان فيهن في النادر الشاذ، وعقلاء النساء وذوات الحزم والفتنة منهن معدودات، ومن بهذه الصفة من الرجال لا تحصى كثرة...» (المرتضى، رسائل المرتضى، ١٢٠/٣). وتعرض له العلامة المجلسي أيضاً وجعل المروي في نهج البلاغة ناظراً لذم عائشة (محمد باقر المجلسي، بحار الانوار، ٣٢ / ٢٤٨). كما تعرض له العلامة الطباطبائي في موضعين من تفسيره، أحدهما تحت عنوان: «كلام في الإرث على وجه كلي» (محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢١٢/٤)، والآخر تحت عنوان: «كلام في معنى قيمومة الرجال على النساء» (المصدر السابق، ٤ / ٣٤٦)، وتعرض له الميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي عند شرحه للفقرة الدالة عليه من نهج البلاغة (حبيب الله الهاشمي الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٥ / ٣٠٣). كما تعرض له الشيخ جواد آملّي (عبد الله جواد آملّي، زن در آينه جلال وجمال، ٢٣٠ - ٢٣٤ و ٣٢٩ - ٣٤٤). وتناوله الشيخ محمد مهدي الأصفي بشكل ضمني (محمد مهدي الأصفي «المرأة والولاية السياسية والقضائية دراسة في ضوء الفقه الإسلامي» مجلة فقه أهل البيت ع (بالعربية)، ٣٦ / ٨١)، وغيرهم.

كما تناول العديد من الباحثين هذا الموضوع في رسائل الماجستير، فعلى سبيل المثال تناوله

حجة الإسلام والمسلمين محمود كريميان في رسالته التي تحمل عنوان «كاستى خرد زن از منظر روايات (نقصان عقل المرأة من منظار الروايات)»، وكذلك تناولته زينب المجلسي راد بشكل ضمنى في رسالتها «أسيب شناسى تحقير زن در روايات فريقين (التعرف على نقاط ضعف احتقار المرأة في روايات الفريقين)».

النقطة الملفتة للنظر أن جميع الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع تعاطت مع العقل باعتباره القوة المدركة، وأخذت بالتعاطي مع الروايات المذكورة وفقاً لهذا المعنى، ولم أجد من درس الروايات على ضوء المعاني الأخرى للعقل - سواء في اللغة أم في الروايات - وبالتالي دراسة وتقييمها وفق القرائن الموجودة.

أولاً: نماذج من الروايات الدالة على نقص عقل المرأة

وردت هذه الروايات في مصادر الفريقين، اليك فيما يلي نماذج منها:

▪ روى المحمدون الثلاثة عن أبي عبد الله ع قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص مَا رَأَيْتُ مِنْ ضَعِيفَاتِ الدِّينِ وَنَاقِصَاتِ الْعُقُولِ أَسْلَبَ لَدِي لُبٌّ مِنْكُمْ. (الكليني، الكافي، ۳۲۲/۵ ح ۱؛ وانظر: الطوسي، تهذيب الأحكام، ۷/ ۴۰۴ ح ۱۶۱۲؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ۳/ ۳۹۰ ح ۴۳۷۱).

▪ وفي من لا يحضره الفقيه: وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ص عَلَى نِسْوَةٍ فَوَقَفَ عَلَيْهِنَّ ثُمَّ قَالَ يَا مَعْاشِرَ النِّسَاءِ مَا رَأَيْتُ نَوَاقِصَ عُقُولٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ بِعُقُولِ ذَوِي الْأَبَابِ مِنْكُمْ إِيَّيَّيْ قَدْ رَأَيْتُ أَنْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَقَرَّبْنَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا اسْتَطَعْتُنَّ فَقَالَتْ أَمْرَأَةٌ مِنْهُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعُقُولِنَا؟ فَقَالَ أَمَّا نُقْصَانُ دِينِكُنَّ فَالْحَيْضُ الَّذِي يُصِيبُكِ فَتَمْكُثُ إِحْدَاكُنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا تُصَلِّي وَلَا تَصُومُ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِكُنَّ فَشَهَادَتُكِ إِنَّمَا شَهَادَةُ الْمَرَأَةِ نِصْفُ شَهَادَةِ الرَّجُلِ. (المصدر السابق، ۳/ ۳۹۱ ح ۴۳۷۵).

ورويت نصوص أخرى عن أمير المؤمنين ع أيضاً ورد فيها التعبير «نواقص العقول نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ» (انظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ۸۰؛ الشريف الرضي، خصائص الأئمة، ۱۰۰؛ محمد بن جرير الطبري، المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب، ۴۱۸؛ الصدوق، الخصال، ۳۷۷؛ الامام العسكري ع، التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري، ۶۵۷ و ۶۷۷). مضافاً لذلك فقد وصفت بعض الروايات النساء بـ«ضعاف العقول» نظير:

▪ وَفِي حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ أَعِينٍ قَالَ حَرَّضَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع النَّاسَ بِصِفِّينَ فَقَالَ.. وَلَا تُمَثِّلُوا بِقَتِيلٍ وَإِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى رِجَالِ الْقَوْمِ فَلَا تَهْتَكُوا سِتْرَهُمْ وَلَا تَدْخُلُوا دَارَهُمْ وَلَا تَأْخُذُوا شَيْئاً مِنْ أَمْوَالِهِمْ

إِلَّا مَا وَجَدْتُمْ فِي عَسْكَرِهِمْ وَلَا تَهَيِّجُوا امْرَأَةً بَأْذَى وَإِنْ شَتَمْتُمْ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَبْتُمْ أَمْرَاءَكُمْ وَصَلَحَاءَكُمْ فَإِنَّهُنَّ ضِعَافُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ وَقَدْ كُنَّا نُؤَمِّرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَهُنَّ مُشْرَكَاتٌ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْتَنَآوَلَ الْمَرَّةَ فَيُعَيِّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ. (الكليني، الكافي، ٥/ ٣٩ ح ٤، الشريف الرضي، نهج البلاغة، الكتاب ١٤؛ محمد بن محمد المفيد، الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة، ٣٧٠).

كما وردت هذه الروايات في مصادر الحديث السنية، فرواها عدد من كبار محدثيهم، إليك فيما يلي نموذجاً مما رووه في هذا المجال:

■ روى البخاري وغيره النص التالي: خرج رسول الله ص في أضحى أو فطر إلى المصلى فمرّ على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها. (محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ١/ ٧٨؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٤/ ٢٣٥؛ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تفسير القرطبي، ٣/ ٨٢؛ محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار، ١/ ٣٥٣ مختصراً).

وقد ورد هذا المضمون في مصادر حديثة عديدة باختلاف في ألفاظه؛ فرواه البخاري في موضع آخر مختصراً (المصدر السابق، ٢/ ١٢٦)، ومسلم (مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ١/ ٦١)، وأبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ٢/ ٤٠٨ ح ٤٦٧٩)، والدارمي (عبد الله بن الرحمن الدارمي، سنن الدارمي، ١/ ٢٣٧)، والترمذي (محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ٤/ ١٢٢ ح ٢٧٤٥)، وابن ماجه (محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، ٢/ ١٣٢٦ ح ٤٠٠٣)، وأحمد (أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢/ ٦٦ و ٣٧٣)، والبيهقي (أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، ١/ ٣٠٨ و ١٤٨/ ١٠١)، وأبو يعلى (أحمد بن علي التميمي، مسند أبي يعلى، ١١/ ٤٦٢ ح ٦٥٨٥)، والنسائي (النسائي، السنن الكبرى، ٥/ ٤٠٠ ح ٩٢٧١)، والحاكم (الحاكم النيشابوري، المستدرک علی الصحیحین، ٤/ ٦٠٢ - ٦٠٣)، والحميدي (عبد الله بن الزبير الحميدي، مسند الحميدي، ١/ ٥١ ح ٩٢)، وابن خزيمة (محمد بن إسحاق بن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، ٣/ ٢٦٨ - ٢٦٩ و ٢/ ١٠١)، وابن حبان (علي بن حبان، الفارسي، صحيح ابن حبان، ٨/ ١١٥ - ١١٦، و ١٣/ ٥٤ - ٥٥)، وأبو يعلى (أبو يعلى، مسند

وهو أن شهادتها نصف شهادة الرجل، ولم تذكر لذلك دليلاً آخر، والحال أن هذا الدليل لا يبدو منسجماً مع نقص قوتها المدركة.

(٧) عبرت بعض الروايات بـ«ضعاف العقول» بدل «ناقصات العقول» ولم تعلق ضعف عقولهن بكون شهادتهن نصف شهادة الرجل، بل مجرى الكلام مشعر بكون العلة في ذلك أنهن عاطفيات، مما يكشف عن اختلاف التعبيرين وأن المراد بنقص عقل المرأة غير ضعف عقلها، وإلا لعل نقص العقل في بعض النصوص بكونهن عاطفيات، أو علل ضعف عقولهن بأن شهادتهن نصف شهادة الرجل، لكننا لا نجد ذلك.

(٨) إذا ألقينا نظرة فاحصة على التعليل المذكور لنقص عقول النساء وأن شهادتهن نصف شهادة الرجال واجهنا التساؤل التالي: ما هي الخصوصية الملحوظة في شهادة النساء، وذلك أن شهادتهن ليست على حد سواء في جميع الأمور، فبعض الأمور لا تقبل فيها شهادتهن بالمرّة وهي كثيرة، وبعضها تقبل فيه شهادتهن - إما منفردات أو منضّمات الى الرجال او الى اليمين - وتعدّ نصف شهادة رجل، فما هي خصوصية الأمور التي تقبل فيها شهادة المرأة وتعد نصف شهادة الرجل كي يفهم التعليل المذكور بدقة؟

(٩) نظراً للنقطة السابقة يطرح السؤال التالي نفسه: لو كان المراد بنقص العقول نقص قواهن الإدراكية لكان الأنسب الإشارة الى عدم قبول شهادتهن (خاصة وأن الأمور التي لا تقبل فيها شهادة النساء أكثر من الأمور التي تقبل فيها شهادتهن)؛ لأنّ ضعيف الإدراك قد يفهم القضايا بشكل خاطئ، فقبول شهادته تعريض لحقوق الآخرين للضياع. وعليه فإنّ التعليل المذكور - وفقاً لهذا المعنى - غير منسجم مع المعلل.

ما يجوز فيه شهادة النساء

اختلفت الروايات في تحديد ما يجوز فيه شهادة النساء، إلا أننا إذا ألقينا نظرة على المروري في الكافي تحت عنوان «بَابُ مَا يَجُوزُ مِنْ شَهَادَةِ النِّسَاءِ وَمَا لَا يَجُوزُ» وجدنا شهادة النساء على ثلاثة أنحاء، فبعض الأمور لا تجوز فيها شهادتهن مطلقاً، وبعضها تجوز شهادتهن منضّمات الى الرجال وبعضها تجوز شهادتهن منفردات، إليك تفصيلها: لا تجوز شهادة النساء في الهلال (الكليبي، الكافي، ٣٩١/٧ ح ٦ و ٨)، ولا في الحدود (المصدر السابق، ٣٩٠/٧ ح ١). نعم تجوز في القتل (المصدر السابق، ٣٩٠/٧ ح ١)، كما تجوز في الزنا إذا كان معهن ثلاثة رجال (المصدر السابق، ٣٩١/٧ ح ٤ و ٥ و ٨). ولا تجوز في الطلاق، وتجاوز في النكاح والدين إذا كان معهن رجل (المصدر السابق، ٣٩٠/٧ ح ٢)، وتجاوز في المنفوسِ والعُدْرَةِ (المصدر السابق، ٣٩٠/٧ ح ٢).

ح ٢)، كما تجوز شَهَادَةُ الْقَابِلَةِ فِي الْوِلَادَةِ (المصدر السابق، ٧ / ٣٩٠ ح ٢)، وتجوز شهادة النساء وحدهن على ما لا يستطيع الرجال ينظرون إليه (المصدر السابق، ٧ / ٣٩١ ح ٤ و ٥ و ٨). وبملاحظة المذكورات يتضح أن قبول الشهادة وعدم قبولها أمر تعبدية تابع لمصالح خاصة، ولا علاقة له بنقص عقل المرأة، ولهذا نجد قبول شهادتها في النكاح وعدم قبولها في الطلاق، وهما من باب واحد، وقبولها في القتل والزنا وعدم قبولها في الحدود الأخرى، مع أن القتل أشد، والاحتياط فيه مطلوب أكثر من غيره، بل لو فسرنا ضعف عقل المرأة بغلبة عواطفها - كما قيل - فإن العاطفة تتغلب على المرأة فيما ينتهي إلى القتل أكثر مما ينتهي إلى الحد بلا ريب.

ثانياً: معنى العقل

أ. العقل لغة:

كتب الخليل الفراهيدي: العقل: نقيض الجهل. عقل يعقل عقلاً فهو عاقل. والمعقول: ما تعقله في فؤادك... وعقل بطن المريض بعدما استطلق: استمسك. وعقل المعتوه ونحوه والصبي: إذا أدرك وزكا. وعقلت البعير عقلاً شددت يده بالعقال أي الرباط... وعقلت القتيل عقلاً: أي وديت ديته من القرابة لا من القتال... والعقل: الحصن وجمعه العقول (الخليل الفراهيدي، كتاب العين، ١ / ٥٩١ عقل).

وكتب ابن فارس: العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد يدل عظمه على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة، من ذلك العقل وهو الحابس عن ذميمة القول والفعل... ومن الباب المعقل والعقل وهو الحصن وجمعه عقول... ومن الباب العقل وهي الدية يقال: عقلت القتيل أعقله عقلاً إذا أدت ديته... (ابن فارس، ترتيب مقاييس اللغة، ٦٩١ عقل).

وكتب ابن الأثير في هذا المجال: قد تكرر في الحديث ذكر العقل، والعقول، والعاقلة أما العقل: فهو الدية، وأصله: أن القتال كان إذا قتل قتيلاً جمع الدية من الإبل فعقلها بفناء أو لياء المقتول... وكان أصل الدية الإبل، ثم قومت بعد ذلك بالذهب والفضة والبقر والغنم وغيرها. (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ٣ / ٢٧٨ - ٢٨٢ عقل)

ب. العقل من منظار المحدثين

كتب الشيخ الحر العاملي في هذا المجال قائلاً: «العقل يُطْلَقُ فِي كَلَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ وَبِالْتَّبَعِ يُعْلَمُ أَنَّهُ يُطْلَقُ فِي الْأَحَادِيثِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانَ أَحَدُهَا قُوَّةُ إِدْرَاكِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا وَمَعْرِفَةُ أَسْبَابِ الْأُمُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَهَذَا هُوَ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ. وَثَانِيهَا: حَالَةٌ وَمَلَكَةٌ

تَدْعُو إِلَى اخْتِيَارِ الْخَيْرِ وَالْمَنَافِعِ وَاجْتِنَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِّ. وَتَالَتْهَا: التَّعَقُّلُ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَلِذَا يُقَابَلُ بِالْجَهْلِ لَا بِالْجُنُونِ» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١٥ / ٢٠٨).

وكتب العلامة المجلسي قائلاً: «اعلم أن فهم أخبار أبواب العقل يتوقف على بيان ماهية العقل واختلاف الآراء والمصطلحات فيه فنقول إن العقل هو تعقل الأشياء وفهمها في أصل اللغة واصطلاح إطلاقه على أمور» وذكر له ست معانٍ (المجلسي، بحار الأنوار، ١ / ١٠٠).

الملفت للنظر أن هذين المحدثين الجليلين لم يشيرا إلى بعض معاني العقل المستعملة في الروايات؛ نظير المعنى الوارد في رواية الصدوق التالية: «سُئِلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَ قَيْلٍ لَهُ مَا الْعَقْلُ فَقَالَ التَّجَرُّعُ لِلْغُصَّةِ حَتَّى تُنَالَ الْفُرْصَةَ» (الصدوق، معاني الأخبار، ٢٤٠ ح ١). ونظير استعماله بمعنى الدية، والذي ذكره ابن الأثير أول معاني العقل.

ج. استعمال العقل بمعنى الدية

استعمل لفظ «العقل» في بعض الروايات بمعنى «الدية»، وقد استعمل بهذا المعنى في روايات كثيرة منتشرة في كتب الفريقين، إليك نماذج منها:

▪ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ص جَيْشًا إِلَى خَثْعَمَ فَلَمَّا عَشِيَهُمْ اسْتَعْصَمُوا بِالسُّجُودِ فُقِتِلَ بَعْضُهُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيِّ ص فَقَالَ: أَعْطُوا الْوَرْتَةَ نِصْفَ الْعَقْلِ بِصَلَاتِهِمْ. (الكليني، الكافي، ٥ / ٢٣ ح ١).

▪ وَفِي رِوَايَةِ السَّكُونِيِّ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ع كَانَ يَقْضِي فِي كُلِّ مَفْصَلٍ مِنَ الْأَصَابِعِ ثُلُثَ عَقْلٍ تِلْكَ الْأَصَابِعِ إِلَّا الْأَيْهَامَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْضِي فِي مَفْصَلِهَا نِصْفَ عَقْلٍ تِلْكَ الْإَيْهَامَ لِأَنَّ لَهَا مَفْصَلَيْنِ. (الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤ / ١٥١ ح ٥٣٣٦).

▪ وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ ع أَنَّ عَلِيًّا ع كَانَ يَقُولُ النُّخْتَى يُوْرَثُ مِنْ حَيْثُ يَبُولُ فَإِنْ بَالَ مِنْهُمَا جَمِيعًا فَمِنْ أَيُّهُمَا سَبَقَ الْبَوْلُ وَرِثَ مِنْهُ فَإِنْ مَاتَ وَلَمْ يَبْلُ فَنِصْفُ عَقْلِ الرَّجُلِ وَنِصْفُ عَقْلِ الْمَرْأَةِ. (المصدر السابق، ٤ / ٣٢٦ ح ٥٧٠١، الطوسي، تهذيب الأحكام، ٩ / ٣٥٤ ح ٤).

وغيرها من الروايات الواردة في مصادرنا الحديثية المعتبرة (انظر: الكليني، الكافي، ٧ / ١٧٠ ح ١ و ٣٥٥ ح ٦، الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٣ / ١٢٦ ح ٣٤٧٤، الطوسي، تهذيب الأحكام، ٩ / ٣٩٦ ح ١٤١٤ و ١٠ / ٢٤٩ ح ٩٨٧، الطوسي، الإستبصار، ٤ / ٢٤ ح ٢، الصدوق، المقنع، ٥٢٦) والواردة في روايات العامة أيضاً، بل جعل بعض محدثيهم عنوان الباب: «باب عقل المرأة» (انظر: ابن عبد البر، الاستدكار، ٨ / ٦٤)، وهو كاشف عن اشتهاار التعبير عن الدية بالعقل في رواياتهم، وإليك فيما يلي نموذجاً منها:

■ عن أبي هريرة قال قال النبي ص البهيمة عقلها جبار، والبئر عقلها جبار، والمعدن عقله جبار، وفي الركاز الخمس. (المعجم الأوسط، ٦ / ٢٨٤؛ علل الدارقطني، ١٠ / ٢٦ س ١٨٢٩؛ الكامل، ٣ / ٢٦١ نحوه)

ملاحظات حول الروايات التي استخدمت العقل بمعنى الدية

إذا ألقينا نظرة فاحصة على الروايات التي استخدمت العقل بمعنى الدية أثارنا انتباهنا الأمور التالية:

(١) ورد في روايات العامة التعبيران: «عقل أهل الذمة» و«عقل زوجها»، ولا نجد نظيرهما في رواياتنا، بل إن جميع ما ورد في تراثنا الحديثي بشأن دية أهل الذمة - أو اليهود والنصارى والمجوس - أو بشأن إرث المرأة من دية زوجها فهو بلفظ «الدية» خاصة. (الكليني، الكافي، ٧ / ١٤١ ح ٨ و ٩ باب ميراث القاتل، و ٣٠٩ باب المسلم يقتل الذمي أو يجرحه) وبالدفقة فيهما وجدنا روايات العامة عن النبي ص، ورواياتنا مروية عن الصادقين.

(٢) الروايات المروية في مصادرنا والتي استخدمت «العقل» بمعنى «الدية» إما مروية عن النبي ص أو عن أمير المؤمنين ع ، ولا نجد شيئاً منها عن بقية المعصومين. نعم بعض رواياتنا مروية عن الإمام الصادق ع أو عن الإمام العسكري ع إلا أنها تنتهي إلى النبي ص أو أمير المؤمنين ع . وروايات العامة مروية إما عن النبي ص أو عن أمير المؤمنين ع أو عن بعض الصحابة ما خلا رواية ربيعة الرأي. (عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ٩ / ٣٩٤ ح ١٧٧٤٩ وانظر أيضاً: ح ١٧٧٥٠ و ١٧٧٥٣).

(٣) بلحاظ التقطين السابقتين ينكشف أن استعمال «العقل» بمعنى «الدية» كان شائعاً في النصف الأول من القرن الأول، وترك استعماله بهذا المعنى أو تضاعف فيما بعد. أو فقل هو كاشف عن التطور الدلالي لهذا اللفظ.

(٤) نظراً للنقطة السابقة ونظراً لما تقدم آنفاً من أن الروايات الدالة على نقصان عقل المرأة مروية عن خصوص النبي ص وأمير المؤمنين ع يطرح الاحتمال التالي نفسه وهو أن المراد بالعقل في الروايات المذكورة هو «الدية» لا القوة المدركة، وخاصة لو لاحظنا التعابير المشابهة لها في الروايات التي استخدمت لفظ «العقل» بمعنى «الدية»، نظير الروايتين التاليتين:

■ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ص قال: عقل المرأة مثل عقل الرجل، حتى تبلغ الثلث من ديتها. (الدارقطني، سنن الدارقطني، ٣ / ٧٣ ح ٣١٠٥، البيهقي، معرفة السنن والآثار، ٦ / ٢٢٥ ح ٤٩٢٠ نحوه).

▪ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: رسول الله ص: عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين. (محمد بن اسماعيل الكحلاني، سبل السلام، ٣ / ٢٥٠ ح ٩).
فالمراد بالعقل فيهما هو الدية لا القوة المدركة كما هو واضح.

د. فهم قدماء المحدثين لهذه الروايات

من النقاط التي تسترعي الانتباه في التعاطي مع الحديث هي فهم قدماء المحدثين له؛ لما يحتلّه من دور هامّ في فهم الحديث باعتبار قربهم من عصر الصدور، وقربهم من القرائن الدالة على المعنى المقصود؛ حيث كانت الكثير من المصادر والنصوص تحت اختيارهم، ولم تصلنا، مضافاً الى عدم تأثرهم بالتطور الدلالي للألفاظ الواردة في الأحاديث. وباللقاء نظرة على فهم المحدثين لها نجدهم فهموها بغير ما نفهمه اليوم منها. والذي يكشف عن فهمهم لها عناوين الأبواب التي أوردوها فيها، واليك فيما يلي عناوين هذه الأبواب:

فهم محدثينا

١) أوردها الشيخ الكليني في الباب الثاني من كتاب النكاح وفي «باب غلبة النساء» (الكليني، الكافي، ٥ / ٣٢٢)، وأورد فيه روايتين أولاهما الرواية محل البحث، والثانية ما رواه باسناده «عن عُبَيْةِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ أَتَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَ فَخَرَجَ إِلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا عُبَيْةُ شَغَلْتَنَا عَنْكَ هَؤُلَاءِ النِّسَاءُ»، مما يكشف عن فهمه لها وأن المراد بها غلبة النساء للرجال وشغلهم لهم، لا الطعن فيهن ونقص عقولهن، ولهذا لم يوردها في أبواب العقل، مع أنه لو فهم من «العقل» القوة المدركة لكان المناسب إيرادها في «كِتَابِ الْعَقْلِ وَالْجَهْلِ» (المصدر السابق، ١ / ١٠ - ٢٩) أو أبواب مناسبة له. (نظير «باب المؤمن وعلاماته وصفاته» المصدر السابق، ٢ / ٢٢٦). ومعنى الحديث وفق هذا الفهم هو أنه مع كون النساء نواقص الدين والعبادة - بلحاظ الجانب الديني والمعنوي - ونواقص الدية - بلحاظ الجانب المادي والديني - نجدهن قد سلبن عقول الرجال وغلبتهم وشغلهم، مع أن مقتضى هاتين الصفتين عدم التأثير والانشغال بهن. وكذلك صنع الشيخ الحر العاملي حيث أورد كلتا الروايتين في باب «كَرَاهَةِ الْإِفْرَاطِ فِي حُبِّ النِّسَاءِ وَتَحْرِيمِ حُبِّ النِّسَاءِ الْمُحْرَمَاتِ» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢٠ / ٢٤)، بمعنى أن الإفراط في حبهن والانشغال بهن مذموم، فمن كانت بهذه الصفات لا ينبغي الانشغال بها. ويشهد لهذا المعنى ما فهمه ابن ماجه - من العامة - حيث أوردتها في «باب فتنة النساء» (ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٢ / ١٣٢٦)، فهو دال على أن النساء يفتن الرجال فيسلبنهم عقولهم.

٢) أورد الصدوق الحديثين المتقدمين عنه في باب «المذموم من أخلاق النساء وصفاتهن»

(الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٣/ ٣٩٠ ح ٤٣٧١ وح ٤٣٧٥)، وهو كاشف عن فهمه لهما، وأنه مع وجود هذه الصفات المذمومة في النساء لا ينبغي التعلق الشديد بهن.

٣) أوردتها الشيخ الطوسي في «باب اختيار الأزواج» (الطوسي، تهذيب الأحكام، ٣٩٩/٧)، وهو كاشف عن فهمه له.

فهم محدثي العامة

١) أوردتها البخاري في «باب ترك الحائض الصوم» (البخاري، صحيح البخاري، ٧٨/١)، مما يكشف عن فهمه لها، وأنها لبيان ترك النساء للصوم أيام الحيض، لا في مقام الطعن على النساء. وأوردتها مسلم في باب «بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات» (مسلم، صحيح مسلم، ٦١/١)، والترمذي في «باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان» (الترمذي، سنن الترمذي، ١٢٣/٤)، وهما كاشفان عن فهمهما لها، وأنها في مقام بيان ما يزيد في الإيمان وينقص منه، وهو العمل، حيث تقعد المرأة عن الصلاة والصيام أياماً في كل شهر، فينقص عملها، لا أنها في مقام الطعن والانتقاص من النساء.

٢) وأوردتها ابن ماجة في «باب فتنة النساء» (ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ١٣٢٦/٢)، وهو دال على أنه فهم منه كون النساء فتنة للرجال لا الطعن في النساء والانتقاص منهن.

٣) وأوردتها ابن خزيمة في «باب إسقاط فرض الصلاة عن الحائض أيام حيضها» (ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، ٢ / ١٠١)، وهو شبيه بما فهمه مسلم.

٤) وأوردتها البيهقي في عدة أبواب فأوردتها في «باب الحائض لا تصلي ولا تصوم» (البيهقي، السنن الكبرى، ٣٠٨/١)، و«باب الشهادة في الدين وما في معناه مما يكون مالا أو يقصد به المال» (المصدر السابق، ١٠ / ١٤٨)، وثالثة في «باب ما جاء في عددن» (المصدر السابق، ١٠ / ١٥١). كما أوردتها في كتابه معرفة السنن والآثار في «باب في أن شهادة النساء لا رجل معهن» (البيهقي، معرفة السنن والآثار، ٣٨٢/٧). وجميع الأبواب لا علاقة لها بالعقل بمعنى القوة المدركة.

وبه يظهر أن كبار القدماء من المحدثين فهموا من هذه النصوص غير ما فهمه المعاصرون منها، فلم يفهموا منها الطعن في النساء. والظاهر أنه بسبب التطور الدلالي للفظ العقل.

ثالثاً: المراد من هذه الروايات

اتضح مما سبق أن صدور هذه الروايات مما لا يمكن الطعن فيه، كما لا يمكن التردد والطعن في التعبير عن النساء بـ«نواقص العقول»؛ لكثرة واعتبار مصادر الفريقين التي نقلته. بقي

الكلام في المراد منه، وقد اتضح من البحث اللغوي أن «العقل» يحمل عدة معانٍ، بعضها غير مقصود جزماً فلا نتعرض له، وبعضها محتمل فنذكره وندرسه، وهو المعاني التالية:

(١) العقل: نقيض الجهل، عقل يعقل عقلاً فهو عاقل، والمعقول: ما تعقله في فؤادك.

(٢) عقل المعتوه ونحوه والصبي: إذا أدرك وزكا.

(٣) العقل: الدية.

فمعنى العبارة على الاحتمال الأول هو: أن النساء ناقصات العلم. وعلى الثاني: أن إدراك النساء ناقص. وعلى الثالث: أن دية النساء ناقصة.

أما الاحتمال الأول فيدفعه أمران: (١) إنه على خلاف ما فهمه المحدثون. (٢) إن الواقع الخارجي يشهد بخلافه، فالكثير من النساء يحصلن على الشهادات العليا، بل إن نسبة الطالبات في الجامعات والمستويات المختلفة تمثل حوالي ٥٠٪ أو أزيد منها كما تذكر الإحصائيات الرسمية في كل عام عن ذلك. نعم هن أقل نبوغاً من الرجال

وأما الاحتمال الثاني فقد ذكره الكثيرون، بل إن جميع ما رأيناه مما كتب في هذا المجال جعله بهذا المعنى، واختلفوا في إيضاحه على وجوه فقيل:

(١) إن المراد بالعقل هو العقل النظري، أي القوة المتكفلة لإدراك العالم والواقع الخارجي، بما فيها البديهيات وترتيب المقدمات لاستنتاج المعلومات. (محمد رضا زيبايي نجاد - محمد تقي السبحاني، درآمدی بر نظام شخصیت زن در اسلام، ٧٢).

(٢) وقيل: إن المراد به هو العقل العملي، وهو القوة المتكفلة لإدراك الحسن والقبح، بدعوى أن هذه القوة في النساء أضعف منها في الرجال. (المصدر السابق)

(٣) وقيل: إن المراد به هو العقل الآلي، أي القوة المتكفلة لبرمجة الحياة للوصول إلى المطلوب، وهو المسمى بعقل المعاش. بمعنى أن قدرة إدارة وتدبير المرأة لشؤون الحياة أضعف من إدارة الرجل وتدبيره. (المصدر السابق).

إلا أن هذه المعاني اصطلاحية وليست لغوية ولا مستعملة في الحديث، فلا يمكننا فهم الحديث على ضوءها. مضافاً لذلك فإن الاحتمال الأول يدفعه عدم الفرق بين الرجال والنساء في هذا العقل كما يشهد به الواقع الخارجي، بل إنه مدار التكليف، الشامل للذكر والأنثى معاً. والمعنى الثاني يدفعه أن الواقع الخارجي يشهد بإدراك النساء لحسن الأشياء وقبحها، ودعوى أن النساء نواقص العقول بهذا المعنى تحتاج إلى شاهد ودليل. نعم قد يقال إنه لم يكن للنساء آنذاك دور اجتماعي كدورهن في هذا العصر، فعقولهن ناقصة بالنسبة للرجال وبالتالي فالقضية

المذكورة في هذه الروايات قضية خارجية وليست حقيقية، ولهذا طبقه البعض على عائشة باعتبار صدور النص المروي في نهج البلاغة بعد حرب الجمل، (انظر: جوادى آملي، زن در آينه جلال وجمال ٣٦٠) لكنه توجيه بارد؛ إذ لا تنحصر الرواية في هذا النص. مع أن إرادة العقل العملي بحاجة الى قرائن دالة عليه، وهي مفقودة. نعم المعنى المذكور في الاحتمال الثالث صحيح، لكن دلالة هذه الروايات عليه بحاجة الى دليل، وهو مفقود، مضافاً لبعده عن اللغة، فقبوله بحاجة الى تعسف.

وعلى أي حال فعلى الذي يريد إثبات شيء من المعاني أن يراعي الأمرين التاليين: (١) أن يكون ما يذكره من معنى مستنبطاً من اللغة، أو مستلهماً من الأحاديث الأخرى. (٢) أن يذكر القرينة الدالة عليه فيما لو تعددت الاحتمالات. وجميع المعاني المشار اليها بعيدة عن اللغة، أو عارية عن القرينة. فلا يمكننا عدّها المراد الجدي من النصوص المذكورة.

وعلى فرض إرادة بعضها فلا دور للنساء في نقص عقولهن، فلماذا يتمّ تفرّيعهن بذلك؟ مع أننا نجد في بعض الروايات - في تفسير قوله تعالى: «إِنَّ أَكْثَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» - سأل رجل أمير المؤمنين ع ما معنى هذه الحمير؟ فقال أمير المؤمنين: الله أكرم من أن يخلق شيئاً ثم ينكره... (رجب البرسي، مشارق أنوار اليقين، ١٢٥). أضف الى ذلك فإن هذا المعنى من العقل وهذا النوع من الخطاب يواجه الاشكالات التالية:

(١) إنه غير منسجم مع منزلة النبي ص وأمير المؤمنين ع السياسية؛ باعتبارهما حاكمين، والحاكم المحنك لا يثير مشاعر نصف المجتمع ضده.

(٢) عدم انسجام التعليل مع المعنى المذكور للعقل، كما صرح به الشيخ المطهري حيث قال: إن شهادة المرأة لا علة لها بعقلها جزماً؛ فالشهادة تتعلق بالمحسوسات لا بالمعقولات، والشهادة بالمعقولات غير مقبولة، بل ليست بشهادة. (الشيخ المطهري، «زن وجامعه در نگرش استاد مطهري - زن وگواهی» پیام زن، العدد ٧ عام ١٣٧١ ص ١١).

(٣) وفقاً لهذا المعنى لا داعي لعدّ شهادتها نصف شهادة الرجل، فلو شهدت المرأة اقتراض شخص من آخر فإما أن تدرك ذلك بعقلها أو لا تدركه؛ فإن أدركته فلماذا لا تقبل شهادتها تامة، وإن لم تدركه فقبول شهادتها على النصف من شهادة الرجل تعريض لحقوق الآخرين للضياع.

(٤) هو على خلاف فهم قدماء المحدثين من الفريقين لهذه الروايات. وأما الاحتمال الثالث فإنه وإن لم يُذكر قبل، بل قد يبدو بعيداً عند البعض، إلا أن الأمور التالية يمكن عدّها مؤيدات له:

(١) انسجامه مع المنزلة السياسية للنبي ص وأمير المؤمنين ع اللذين صدرت عنهما هذه النصوص؛ فالحاكم المحنك لا يتكلم بما يثير مشاعر نصف المجتمع، ولو أريد بالعقل الدية، فإن نقصها أمر تشريعي، وبيانه لا يمس مشاعرهنكسابقه.

(٢) لو أريد بالعقل الدية انسجمت الأمور الثلاث المذكورة بقوله: «فَأَمَّا نُفُصَانُ إِيمَانَهُنَّ فَفَعُوذُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ وَأَمَّا نُفُصَانُ عَقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ وَأَمَّا نُفُصَانُ حُطُوطِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرَّجَالِ» حيث سيصب الجميع في مصب واحد، وتكون في مقام بيان اختلاف النساء عن الرجال من بعض النواحي التشريعية؛ فيقعدن عن الصلاة والصيام عدداً من الأيام في كل شهر، وديتهن نصف دية الرجال وإرثهن نصف إرث الرجال ولا ينبغي لمن كانت كذلك أن تغلب الرجال وليس فيه تفرغ لهم.

(٣) إن هذا المعنى منسجم مع تعدد التعبير الوارد في الروايات بشأن عقول النساء؛ حيث ورد في بعضها «نواقص العقول»، وفي البعض الآخر «ضعاف العقول»، والأصل في القيود أن تكون احترازية، مع أننا لو جعلنا العقل بمعنى القوة المدركة كان التعبيران بمعنى واحد، وكان القيد إيضاحياً.

(٤) اختلاف التعبير الوارد في عدد من الروايات المروية عن رسول الله ص بشأن الرجال والنساء؛ ففي الكافي والتهذيب والتهذيب: «مَا رَأَيْتُ مِنْ ضَعِيفَاتِ الدِّينِ وَنَاقِصَاتِ الْعُقُولِ أَسْلَبَ لِدِي لُبِّ مَنْكُنَّ»، وفي بعض النصوص: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينِ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكِن» (البخاري، صحيح البخاري، ٧٨/١، البيهقي، السنن الكبرى، ٣٠٨/١، ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، ٢٦٨/٣)، وفي آخر: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينِ أَغْلَبَ لِدِي الألباب وذوي الرأي منكن» (الترمذي، سنن الترمذي، ٤/ ١٢٢ ح ٢٧٤٥)، وفي رابع: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينِ أَذْهَبَ بِقُلُوبِ ذَوِي الألباب منكن» (الهيثمي، مجمع الزوائد، ١١٧/٣)، وفي خامس: «مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينِ أَغْلَبَ لِدِي الألباب ذَوِي الرَّأْيِ مِنْكُنَّ» (ابن عبد البر، التمهيد، ٣/ ٣٢٦)، وفي سادس: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينِ أَغْلَبَ لِدِي لُبِّ مَنْكُنَّ» (السيوطي، الدر المنثور، ٣٧١/١)، فعبر بـ«العقول» بشأن النساء، وبـ«الألباب» بشأن الرجال وهو كاشف عن اختلاف المراد بالعقل عن اللب.

(٥) لو سلمنا أن العقل المقابل لألباب الرجال هو القوة المدركة، فإن النقطة المقابلة للألباب ليست هي نقصان عقول النساء فقط، وإنما هي أمران «نقص إيمانهن ونقص عقولهن»، ومن

الواضح أن نقص الإيمان لا يقابل اللب؛ وإنما هو جانب تشريعي خارج عن اختيار المرأة، فلا وجه لجعله مقابل اللب. وأما لو جعلنا العقل بمعنى الدية كانا جميعاً من مقولة واحدة، وانسجم معناه مع ما فهمه الكليني وغيره من قدماء المحدثين من أنهمع وجود هاتين الصفتين في النساء لا ينبغي غلبتهن للرجال؛ إحداهن بلحاظ الجانب المادي، والأخرى بلحاظ الجانب المعنوي.

(٦) هذا المعنى منسجم مع التطور الدلالي - على فرض وقوعه - في لفظ «العقل»؛ حيث تقدم أن هذه الروايات صادرة عن النبي ص وأمير المؤمنين ع خاصة، والروايات التي استخدمت العقل بمعنى الدية صادرة عنهما أيضاً.

(٧) بهذا المعنى يتم التوفيق بين ما ورد في الروايات المذكورة وبين ما نجده بالوجدان خارجاً، وما ذكره علماء النفس بشأن المرأة، فجاء في كتاب «دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية» ما يلي: حكى الأخ الشهيد آية الله المطهري طاب ثراه في كتابه: «نظام حقوق المرأة في الإسلام» عن المرأة المتخصصة في علم معرفة النفس المسماة «كليود السن» ما حاصله: المرأة بحسب الفطرة تحب أن تكون تحت رياسة الغير ونظارته، وأن يحس الغير أنه يحتاج إليها. وتنشأ هاتان الخصلتان من كون النساء تابعة للإحساس، والرجال تابعين للعقل، وربما كثر إدراك المرأة ولكن إحساسها يغلب على عقلها. فكر الرجل وأطروحته إلى الواقعية أقرب، وهو في القضاء والهداية أدق. والنساء لكونهن أشد إحساساً ووحشة يفرض عليهن الإذعان باحتياجهن إلى الرجال» (المنتظري، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، ١/٣٢٥).

(٨) هذا المعنى منسجم مع فهم قدماء المحدثين لهذه الروايات.

(٩) هذا المعنى منسجم مع أرضية صدور النص المروي في نهج البلاغة حيث صدر بعد حرب الجمل.

بقي الكلام في المراد بالتعليل المذكور لنقص عقول النساء، فنقول: يحتمل أن يراد به الإشارة إلى أحد الأمرين التاليين:

(أ) الإشارة إلى آية الدين؛ بمعنى أنه لما كانت دية المرأة نصف دية الرجل، فلا تتمكن أن تثبت بشهادتها ما يثبت الرجل بشهادته في الأمور المالية كالدين. ويشهد لذلك ما ورد في بعض الروايات من أنه لا يثبت بشهادة المرأة إلا بمقدار شهادتها نظير: «عَنْ أَبَانَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع أَنَّهُ قَالَ: فِي وَصِيَّةٍ لَمْ يَشْهَدَهَا إِلَّا امْرَأَةٌ فَأَجَازَ شَهَادَةَ الْمَرْأَةِ فِي الرَّبْعِ مِنَ الْوَصِيَّةِ بِحِسَابِ شَهَادَتِهَا» (الكليني، الكافي، ٤/٧ ح ٥). ويعضده فهم بعض قدماء المحدثين حيث أوردها في «باب الشهادة

في الدين وما في معناه مما يكون مالاً أو يقصد به المال» (البيهقي، السنن الكبرى، ١/ ١٤٨).
 ب) الإشارة الى وجه الشبه بين دية المرأة والأمور التي تقبل فيها شهادتها، فكما أن الشارع جعل شهادتها نصف شهادة الرجل، كذلك جعل ديتها نصف دية الرجل. أو فقل: إن الإمام ع لا يريد بيان العلة لنقص ديتها وإنما ذكر الشاهد على ذلك بإشارة للآية الكريمة. وعليه سيكون معنى قوله: «وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِكُنَّ فَشَهَادَتُكُنَّ إِنَّمَا شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ نَصْفُ شَهَادَةِ الرَّجُلِ» هو: أن الشاهد على نقصان دية المرأة هو أن شهادتها نصف شهادة الرجل.

ويمكن أن تكون الأمور التالية معزراً لهذين الاحتمالين: (١) ما تقدم من عدم انسجام التعليل مع المعمل. (٢) ما تقدم نقله عن الشهيد مرتضى المطهري من عدم علقه الشهادة بالعقل، خاصة وأن شهادة المرأة غير مقبولة في أغلب القضايا مع قبولها في الدين. (٣) عدم انسجام هذا النوع من الخطاب النبوي والعلوي مع نوع الخطاب القرآني الذي لا يميز في الجنسية وإنما المعيار فيه هو التقوى والعمل. (٤) الأبحاث العلمية الدالة على عدم نقص عقل المرأة بمعنى قوتها المدركة.^١

المراد بنقص الإيمان

النقطة الأخرى التي تثير التساؤل حول الروايات المذكورة هي ما ورد فيها من نقص إيمان النساء، فهل هو للظعن فيهن؟ وجوابه: أن المراد من هذه الفقرة هو تركهن للصلاة أياماً خاصة، وهذا ما يشهد له المروي في مصادر عديدة عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله ع قال: قلت له ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل، مفروض من الله مبين في كتابه واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له بها الكتاب، ويدعو إليه، ولما أن أصرف نبيه إلى الكعبة عن بيت المقدس قال المسلمون للنبي: رأيت صلاتنا التي كنا نصلي إلى بيت المقدس ما حالنا فيها، وما حال من مضى من أمواتنا وهم

^١عقل المرأة على المستوى التجريبي: قام البروفيسور سيرل بيرت العالم في المجالات النفسية والتعليمية بتجربة ذات شهرة واسعة وذلك في سنة ١٩١٢ فأخذ عينة كبيرة من تلاميذ المدارس من كلا الجنسين في بريطانيا، لوصف الفروق الأساسية في القدرات العقلية من استقبال وتحليل إضافة للقدرات الحركية والقدرات العاطفية بين الذكور والإناث، وكانت نتائج التجربة أن الفروق في القدرات العقلية بوجه عام ضئيلة جداً، ومن الممكن تجاهلها، إلا أن المفاجئة التي حصل عليها هي أن هذه الفروق الضئيلة كانت لصالح الإناث، فالفتيات أظهرن تطوراً أكبر وقدرة أعلى من الناحية اللغوية في مرحلة معينة.

عقل المرأة على المستوى التشريحي: إن متوسط حجم مخ الرجل يتفوق بحوالي ١٠ في المائة عن متوسط حجم مخ المرأة. ولهذا فإن حجماً أكبر يعني بالتالي كفاءة أكبر وقد يكون الفرق هذا صحيحاً نتيجة للفرق الملاحظ بين حجم الرجل عموماً وحجم المرأة، إلا أن الحجم بالنسبة للمخ ليس هو العامل الوحيد للحكم على الكفاءة، فمخ الأثني وبوجه عام يحتوي على نسبة أكبر من المادة الرمادية (المعالجة للمعلومات) من الرجل الذي يحتوي مخه وبالمقابل على نسبة أكبر من المادة البيضاء. وهناك أبحاث كثيرة أكدت تماثل نصفي الدماغ عند النساء بشكل أكبر منه عند الرجال ولم يتأكد أي شيء يدل على اختلاف في التفكير بناء على ذلك. ومعنى هذا أن الرجل والمرأة سواء بالقطرة من حيث التفكير، ولا يتميز أحدهما عن الآخر إلا في الفروق الفردية - أي في مستوى الذكاء ودرجته وليس في نوعيته بالنسبة للجنس الواحد. (نقلناه باختصار من موقع «حديث الرسول محمد ص»).

يصلون إلى بيت المقدس فأُنزل الله «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ» فسمى الصلاة إيماناً...» (العياشي، تفسير العياشي، ۶۳/۱ ح ۱۱۵، الكليني، الكافي، ۳۷/۲ ح ۱، النعمان المغربي، دعائم الإسلام، ۸/۱). الملفت للنظر أن هذا المعنى هو الذي تم التصريح به في روايات نواقص العقول حيث علل نقص إيمانهم بقوله: «أَمَّا نَقْصَانُ دِينِكُنَّ فَالْحَيْضُ الَّذِي يُصِيبُكُنَّ فَتَمَكُّتُ إِحْدَاكُنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا تُصَلِّي وَلَا تَصُومُ» والتعبير فيهما واحد.

ويشهد لهذا المعنى فهم بعض المحدثين لهذه الروايات نظير مسلم حيث أوردها في باب «بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات» (مسلم، صحيح مسلم، ۶۱/۱)، والترمذي حيث أوردها في «باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان» (الترمذي، سنن الترمذي، ۴/ ۱۲۳)، والبيهقي حيث أوردها في «باب الحائض لا تصلي ولا تصوم» (البيهقي، السنن الكبرى، ۳۰۸/۱)، وابن خزيمة حيث أورده في «باب إسقاط فرض الصلاة عن الحائض أيام حيضها» (ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، ۱۰۱/ ۲).

وبه يتضح أن هذه الفقرة ليست في مقام الطعن في النساء، وإنما هي لبيان أحد الجوانب التشريعية، فهي نظير وصفهن بنواقص العقول ونقص الحظوظ اللذين وردا لبيان جانبين تشريعيين للنساء.

حصيلة البحث

ورد وصف النساء بـ«نواقص العقول نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ» في روايات عديدة عن النبي ص وأمير المؤمنين ع رواها كبار المحدثين من كلا الفريقين. واحتدم النزاع فيها لما يتراءى منها من الطعن في النساء وتحقيرهن؛ فطعن في صدورهما البعض إما سنداً أو دلالة، وأولها ثان، وأدعن لما فيها ثالث. والذي نراه هو أن المراد منها بيان بعض الجوانب التشريعية في المرأة وأن الهدف الأساسي منها هو ذم غلبة النساء للرجال، وأن دور المرأة غير دور الرجل، فلا ينبغي خلط بعض الأدوار ببعض الآخر. وذلك من خلال بيان الأمور التالية:

- (۱) إن فهم الحديث فهماً صحيحاً يتوقف على فهم مفرداته على ضوء المعاني اللغوية أو المعاني الحديثية. مضافاً للحاظ القرائن الدالة على ذلك.
- (۲) إذا تعددت معاني اللفظ الواحد فلا بد أن تدرس جميعاً عند فهمنا للقرآن أو الحديث، والمعياري في فهم المراد الجدي من النص هو القرائن المختلفة.
- (۳) وردت للعقل عدة معاني في اللغة والاصطلاح، لكن اندرس بعضها على مر الزمان وهو

استعماله بمعنى الدينة.

(٤) وردت هذه الروايات عن النبي ص وأمير المؤمنين ع خاصة ولم ترد عن غيرهما من المعصومين.

(٥) إذا كان المراد منها الطعن في النساء وانتقاصهن وتحقيرهن فهذا لا ينسجم مع منزلة النبي ص وأمير المؤمنين ع السياسية؛ باعتبارهما حاكمين. كما لا ينسجم مع كونهما الميئين والمبليين للقرآن الكريم، والحال أن القرآن يذكر النساء الى جانب الرجال دون أي انتقاص وبنفس اللحن والتكريم. وعليه فإما أن نرد الروايات ونعرض عنها لمخالفتها للقرآن، وإما أن نفهمها بمعنى ينسجم مع القرآن. ولا سبيل للأول بعد شهرة الروايات، فلا مناص عن الثاني.

(٦) الأبحاث التي تعرضت لهذه الأحاديث جعلت «العقل» بأحد معاني ثلاثة: العقل النظري، العقل العملي، العقل الآلي، إلا أن المعنيين الأخيرين ليسا لغويين ولا مستعملين في الحديث، وإنما المستعمل منها في اللغة والقرآن والحديث هو ما اصطلح عليه اليوم بالعقل النظري. لكن لا يمكن إرادته في المقام.

(٧) إن الروايات الواردة بشأن عقول النساء على طائفتين، فدل بعضها على نقص عقولهن، ودل الآخر على ضعف عقولهن. لكن جميع ما دل على نقص عقولهن علل بأن شهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد، وأما ما دل على ضعف عقولهن فالتعليل المذكور له هو غلبة جانبها العاطفي. ولا ينبغي خلط أحدهما بالآخر.

(٨) إن التعبير الوارد في عدد من الروايات بشأن الرجال والنساء متفاوت، فعندما تحدث عن النساء عبر بلفظ «العقل»، وعندما تحدث عن الرجال عبر بلفظ «اللب، الألباب»، وهو مؤيد لكون المراد بالعقل غير اللب والقدرة الفكرية.

(٩) إن فهم قدماء المحدثين لهذه الأحاديث، مضافاً لأرضية صدور بعضها - بعد حرب الجمل - دال على أن المراد من هذه النصوص هو ذم غلبة النساء للرجال.

(١٠) الأبحاث العلمية المعاصرة تشهد بعدم الفارق الملحوظ بين القدرة الفكرية للنساء والرجال، وعليه فإرادة هذا المعنى من هذه الروايات بعيد جداً.

فمن مجموع ما ذكر يقوى في النظر أن يكون المراد بهذه الروايات هو بيان ذم غلبة النساء للرجال كما فهمه الشيخ الكليني وغيره من كبار المحدثين، وليس المراد بها الطعن في النساء وتقريعهن. ولا علاقة للعقل المذكور فيها بالعقل العملي أو العقل الآلي اللذان هما اصطلاحان جديدان. والسبب في غفلة الباحثين عن هذا المعنى هو التطور الدلالي للفظ العقل.

المصادر

القرآن الكريم.

ابن اثير، مبارك بن محمد، *النهاية في غريب الحديث*، تحقيق محمود محمد الطناحي، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، قم، الطبعة الرابعة، ١٣٦٧.

ابن بابويه، محمد بن علي، *الخصال*، تحقيق علي اكبر الغفاري، جامعة المدرسين، قم، الطبعة الاولى، ١٣٦٢.

_____، *المقنع*، مؤسسة الامام المهدي (عج)، قم، الطبعة الاولى ١٤١٥ق.

_____، *معاني الأخبار*، تحقيق علي اكبر الغفاري، جامعة المدرسين، قم، الطبعة الاولى، ١٤٠٣ق.

_____، *من لا يحضره الفقيه*، تحقيق علي اكبر الغفاري، جامعة المدرسين، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٣ق.

ابن حبان، محمد بن حبان، *صحيح ابن حبان*، تحقيق شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤ق.

ابن حنبل، احمد بن محمد، *مسند احمد*، بيروت، دار صادر.

ابن حيون، نعمان بن محمد، *دعائم الاسلام*، تحقيق آصف فيضي، قم، مؤسسة آل البيت، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ق.

ابن خزيمة، محمد بن إسحاق، *صحيح ابن خزيمة*، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، دمشق، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٢ م.

ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله، *الاستذكار*، تحقيق سالم محمد عطا - محمد علي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

_____، *التمهيد*، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، طبع ونشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧ق.

ابن عدي، عبدالله بن عدي، *الكامل*، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ق.

ابن فارس، أحمد بن فارس، *ترتيب مقاييس اللغة*، ترتيب وتنقيح علي العسكري - حيدر المسجدي، قم، مركز دراسات الحوزة والجامعة، الطبعة الأولى عام ١٣٨٧.

ابن ماجه، محمد بن يزيد، *سنن ابن ماجه*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر.

ابن مثني تميمي، احمد بن علي، *مسند أبي يعلى*، تحقيق حسين سليم أسد، دمشق، دار المأمون للتراث.

ابو داود، سليمان بن الأشعث، *سنن أبي داود*، تحقيق سعيد محمد اللحام، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٠ق.

- بخاري، محمد بن إسماعيل، *صحيح البخاري*، دار الفكر، ١٤٠١ ق.
- بيهقي، احمد بن حسين، *السنن الكبرى*، بيروت، دار الفكر.
- _____، *معرفة السنن والآثار*، تحقيق سيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ترمذي، محمد بن عيسى، *سنن الترمذي*، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ ق.
- جوادى آملی، عبد الله، *زن در آينه جلال و جمال*، قم، دار الهدى، ١٣٧٨.
- حافظ برسي، رجب بن محمد، *مشارك أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين*، تحقيق علي عاشور، الأعلمي، بيروت، الطبعة الاولى، ١٤٢٢ ق.
- حاكم نيشابوري، محمد بن عبدالله، *المستدرک على الصحيحين*، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة.
- حر العاملی، محمد بن الحسن، *وسائل الشيعة*، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت، قم، الطبعة الاولى، ١٤٠٩ ق.
- حسن بن علي، الإمام الحسن العسكري، *التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري*، قم، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي (عج)، الطبعة الاولى، ١٤٠٩ ق.
- حميدي، محمد بن فتوح، *مسند الحميدي*، تحقيق حبيب الرحمن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ ق.
- خليل بن احمد، *كتاب العين*، قم، هجرت، الطبعة الثانية.
- خوئي، حبيب الله بن محمد هاشم، *منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة*، تحقيق ابراهيم الميانجي، طهران، مكتبة الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠ ق.
- دارقطني، علي بن عمر، *سنن الدارقطني*، تحقيق مجدي بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ ق.
- دارقطني، علي بن عمر، *علل الدارقطني*، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، الرياض، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ ق.
- دارمي، عبدالله بن عبدالرحمن، *سنن الدارمي*، دمشق، مطبعة الاعتدال، ١٣٤٩ ق.
- زيبايي نجاد، محمد رضا و محمد تقي سبجاني، *درآمدی بر نظام شخصیت زن در اسلام*، قم، دار النور، الطبعة الأولى، ١٣٨١.
- سيوطي، عبدالرحمن ابن ابى بكر، *الدر المنثور*، بيروت، دار المعرفة.
- شريف الرضى، محمد بن حسين، *خصائص الأئمة*، تحقيق محمد هادي الأميني، آستان قدس رضوي، مشهد، الطبعة الاولى، ١٤٠٦ ق.

- هجرت، الطبعة الاولى، ۱۴۱۴ ق.
- شوكاني، محمد بن علي، *نيل الأوطار*، بيروت، دار الجيل، ۱۹۷۳ م.
- صنعاني، عبدالرزاق بن همام، *المصنف*، تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الاعظمي.
- طباطبائي، محمد حسين، *الميزان في تفسير القرآن*، قم، جامعة المدرسين، الطبعة الخامسة، ۱۴۱۷ ق.
- طبراني، سليمان بن احمد، *المعجم الأوسط*، تحقيق ونشر دار الحرمين ۱۴۱۵ ق.
- طبري، محمد بن جرير، *المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب*، تحقيق أحمد المحمودي، قم، مؤسسة الثقافة الاسلامية، الطبعة الأولى، ۱۴۱۵ ق.
- طوسي، محمد بن الحسن، *الإستبصار فيما اختلف من الأخبار*، تحقيق حسن الموسوي الخرساني، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الأولى، ۱۳۹۰ ق.
- _____، *تهذيب الأحكام*، تحقيق حسن الموسوي الخرساني، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الرابعة، ۱۴۰۷ ق.
- علم الهدى، مرتضي بن داعي، *رسائل المرتضى*، تحقيق السيد أحمد الحسيني، قم، طبع سيد الشهداء، ۱۴۰۵ ق.
- عياشي، محمد بن مسعود، *تفسير العياشي*، تحقيق هاشم رسولي المحلاتي، طهران، المطبعة العلمية، الطبعة الاولى، ۱۳۸۰ ق.
- قرطبي، محمد بن احمد، *الجامع لاحكام القرآن*، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- قمي، علي بن ابراهيم، *تفسير القمي*، تحقيق طيب الموسوي الجزائري، دار الكتاب، قم، الطبعة الثالثة، ۱۴۰۴ ق.
- كحلاني، محمد بن اسماعيل، *سبل السلام*، تحقيق محمد عبد العزيز الخولي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الرابعة، ۱۳۷۹ ق.
- كليني، محمد بن يعقوب، *الكافي*، تحقيق علي اكبر الغفاري ومحمد الآخوندي، طهران، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ۱۴۰۷ ق.
- متقي، علي بن حسام الدين، *كنز العمال*، تحقيق الشيخ بكرى حياني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ۱۴۰۹ ق.
- مجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، *بحار الانوار*، تحقيق عدد من المحققين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ۱۴۰۳ ق.
- مسلم بن الحجاج، *صحيح مسلم*، بيروت، دار الفكر.

- مفید، محمد بن محمد، *الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة*، تحقیق علی میرشریفی، قم، نشر مؤتمّر الشیخ المفید، الطبعة الأولى، ١٤١٣ق.
- منتظری، حسین علی، *دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية*، قم، مکتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ق.
- نسائی، احمد بن علی، *السنن الكبرى*، تحقیق عبد الغفار سلیمان البنداری وسید کسروی حسن، بیروت، دار الکتب العلمیة، الطبعة الأولى، ١٤١١ق.
- هیثمی، علی بن ابوبکر، *مجمع الزوائد*، بیروت، دار الکتب العلمیة، ١٤٠٨ق.